المكونات السيرية في الرواية الجزائرية "لقبش" لعياش يحياوي أنموذجا

The autobiographical components in the algerian novel Ayash yahyawi's "laqbesh" as a corpus

د. رجاء مستور*

جامعة البليدة 02 – علي لونيسي، الجزائر mestouati@hotmail.fr

تاريخ الوصول2020/11/21 تاريخ القبول 2021/10/13 تاريخ النشر2021/12/27

ملخص:

قد تتداخل السيرة الذاتية والرواية ويصبح التمييز بينهما صعبا، إلا أن الاجتهادات المطروحة في الساحة النقدية، وخاصة منها التنظيرية، قللت من شدّة الصعوبة وذلك بوضع حدود مضبوطة للسيرة الذاتية. ويعد فيليب لوجون من أكثر وأول المسهمين في ذلك بسنّ شروط موضوعية لميثاق السيرة الذاتية وهو أن يندمج المؤلف الواقعي والراوي والسارد والشخصية الرئيسية.

والسيرة الذاتية حسبَه هي التي تتميّز بالتصريح المباشر للكاتب بأنها سيرة ذاتية وتشتمل على أسماء حقيقية. انطلاقا من هذا التصوّر نطرح التساؤل: هل المنجَز الذي يصرّح صاحبُه في بدايته أنه سيرة ذاتية نسلم بأنه في خانة ذلك التجنيس، أم أن مؤشرات أخرى تعمل على حضور الذات وتأكيد نوعية العمل؟ إنها العناوين أو العتبات النصية التي تعد وظائف دلالية وجمالية وعاملا في تدعيم التجنيس، أمر قد بدا قريبا من نص "لقبش" للمؤلف الجزائري عياش يحياوي، فعملنا على تأكيد ذلك بدراسة العتبات النصيّة في مؤلَّفه الذي جنّسه بسيرة ذاتية.

الكلمات المتاحية: السيرة الذاتية؛ عتبات؛ الرواية؛ التجنيس؛ لقبش.

Abstract:

The autobiography and the novel may overlap, and the distinction between them becomes difficult. However, the efforts presented in the critique fields, especially the theoretical ones, has reduced the difficulty by setting precise limits of the autobiography .Philipe Le Jeune is one of the first contributors to the to the objective terms of the autobiography, which require an integration of the real author, the narrator, the teller and the main character. According to him, the autobiography is characterized by direct statement of the author as a biography and includes real names.

Based on the perception, we ask the question as follows: is the work that is declared at its beginning as being a biography can be considered as one, or there must appear other indicators that confirm its genre? These titles or textual thresholds are symbolic and aesthetic functions that promote this genre. This seems to be close to the text of the Algerian Ayach Yahiaoui "Laqbesh", and we have confirmed this point by examining the texual shreholds in his literary piece that he classified as an autobiography.

Keywords: autobiography; thresholds; novel; genre; Laqbesh.

* المؤلف المرسل

مقدمـــــــة:

تجنّست السيرة الذاتية بتوصيفات تعددت بين سيرة ذاتية روائية ورواية سير ذاتية ورواية أوتوبيوغرافية، تداخلت والرواية خاصة، ممّا عقّد عملية التمييز، ما طرح تصورات تنظيرية ونقدية حاولت تصنيفها ككتابة تختص بحدود مضبوطة. ومن هذه التصورات ما طرحه فيليب لوجون من أنها "حكي استعاري نثري يقوم به شخص عن وجوده، مركزا على حياته الفردية الخاصة وعلى تاريخ شخصيته"[1] ولم يكتف بتقديم تعريف لها، وإنما حدّد تقعيدا، رأى فيه أن تشكيل الذات وصياغتها في السيرة الذاتية "لا يتم إلا من خلال ميثاق شخصي يندمج فيه المؤلف الواقعي والراوي (السارد) والشخصية الرئيسية"[2]، فلا سيرة ذاتية حسبه إلا بتوفر هذه الشروط الأربعة وهي: المكوّن اللغوي والموضوع وتطابق المؤلف مع الشخصية وتطابق السارد والشخصية، ولم يكن لوجون متفردا في الطرح، وإذا كان من أصحاب السبق، فجورج ماي يعدّ وحدا من الرّواد المجتهدين في تقديم تصور يسمح بالفصل بين التصنيفات، ولم يكن بعيدا في رأيه عن لوجون مع بعض التوسع –واختصار لأن موضوع دراستنا يصب في الجانب التطبيقي لا التنظيري – يرى أن السيرة الذاتية هي التي تتميز بالتصريح المباشر للكاتب بأنها سيرة ذاتية وتشتمل على أسماء حقيقية، وتأتي في صورة مباشرة من خلال مطابقة الشخصية للكاتب، اسما وسلوكا وحياة"[3] انطلاقا من تصور لوجون وماي نطرح التساؤل : هل المنجز الذي يصرّح صاحبه في بدايته أنه سيرة ذاتية، ويحترم فيه الميثاق الشخصي بالتطابق مع المؤلف والسارد والشخصية، يصنف مباشرة في خانة السيرة الذاتية؟ أم أنه يمكن أن تعمل مؤشرات أخرى على حضور الذات وتأكيد نوعية النص؟ إنها العناوين أو العتبات أو كما سماها جونيت الموجّهات النصية، والتي حددها بالعناوين الأساسية والفرعية والمقتبسات والإهداء والمقدمة والتمهيد والاستهلال والهوامش والملاحظات والأيقونات وأسماء المؤلفين الناشرين[4].

إن الفكر السردي اهتم بالمكونات الداخلية والخارجية للنص والتي تعمل على تطويعها، كما يمكن اعتمادها مرجعية لهويته، فهي تمثل نصوصا تسهم في إحضار النص إلى العالم وتقود القارئ "إلى جغرافية النص وتمنحه مفاتيح الاستكشاف لاستغوار مجاهيله وإضاءة مناطقه المعتّمة عبر مجرّة الأسئلة الحرجة التي تفجرها عناصر النص الموازي أثناء فعل القراءة"[5].

تعد العتبات عاملا في تدعيم الوظائف الدلالية والجمالية للنص وعاملا أيضا في تدعيم التجنيس، فحرصنا انطلاقا من ذلك على أن نلمّ بأهم العتبات التي وظّفها المؤلف الجزائري: "عياش يحياوي" في نصّه "لقبش" وهي الطبعة الثانية 2012 في الخلدونية الجزائر، وكانت الطبعة الأولى في 2008 عن مطبعة دار الفجر بأبو ظبي، أما عدد الصفحات فهو 192 صفحة بقياس 14,8 X 21 وكان مصمم الغلاف: مصطفى عبد المجيد.

1–العناوين الخارجية

أ–الصفحة الأولى من الغلاف.

(عمدنا إلى تصوير الصفحات رغبة في تقريب الرؤيا إلى القارئ).

1- العنوان

يعدّ العنوان البوابة الأولى التي نُطِلُّ منها على عالم النص، وتجنح أغلب عناوين الأعمال الروائية إلى التلميح أو الترميز، أما عياش فقد اختار التحديد بانتقاء النمط الاِسمي، وقد يعود ذلك إلى أن الاسم ثابت ومستقر بعكس التركيب الفعلي الذي يوحي إلى التنقل وعدم الصمود. هذا الاختيار يؤكد فيه عياش على التجنيس الذي ألحق به نصه: سيرة ذاتية "لقبش": اسم علم، وهو اسم كانت والدته تطلقه عليه في صغره، يمكن القول أنه ملفوظ يمثّل عتبة نصية معلنة، وهو بالتأكيد يعني شخص شخصية موثقة بالصورة، فالاسم مدون تحت الصورة مباشرة "هذا هو لقبش" كنية، والكنية تكسب شهرة لصاحبها، إلا أن عياش لم يقدم دلالة الاسم محليا ولا الظروف التي ارتبطت بدافع اختيار الكنية.

2- الصورة

صورة شمسية للمؤلف 8X6، وهي في مرحلة الطفولة، وتمثل الصورة نثارا من الذكريات مؤطرة في زمان ومكان محدد، وقد استعان بعض كتاب السيرة الذاتية بالصورة والرسوم لدعم الايدولوجية السير الذاتية، "وهي عبارة عن صور شمسية أو بورتريهات قد تؤدي وظيفة أولية وشعبية وبيداغوجية"[6]، وهي تفرض غالبا تحديد النص على أنه سيرة ذاتية[7]، وأن اتخاذ عياش الإسم والصورة دعامة لتأكيد جنس العمل فإن ذلك لم يحدّه من التصريح عن المؤشر الجنسي: سيرة ذاتية.

ج-المؤشر الجنسي: سيرة ذاتية:

عنوان جزئي: لحليب الطفولة مدوّن على جنب الصورة، وهو اعتراف وشهادة عياش على أن النص مادة تتعلق بشخصه وتخص مرحلة بعينها من حياته: الطفولة، "لحليب الطفولة" لفترة الطفولة التي يبدو أنها مثمنة وجدانيا، إذ يخطها باللّون الأبيض، وكأنه إهداء وانتماء ويكون بهذا قد راهن على نبذ مختلف الأطر التجنيسية المحتملة وهو توجيه قبلي للقارئ للمشاركة في لعبة الكتابة.

د-الجزء الأول: في أسفل الغلاف نلمح جملة: الجزء الأول، وهو إشارة إلى الفصل الأول من زمن (حياة طفولته)، والفصل الأول من التدوين (الكتابة).

فهي ليست سيرة ذاتية لحياته وأنها لجزء منها.

هـ-الاسم: ورد اسم المؤلف في أعلى الغلاف بلون أسود وبحجم هو الأصغر مقارنة بالعناوين الواردة على الغلاف، فهو يتخفى ليبرز لقبش: الطفل والحنين.

ب-الصفحة الأخيرة للغلاف:

1- صورة فوتوغرافية لأمه بجدارية خلفية بيضاء مثل لون الخمار الذي ترتديه ومثل لون حليب الطفولة، أم واقفة ومبتسمة، هي الجزء العملاق لحياته الطفولية وسيرته البدئية.

2- صورة شمسية للمؤلف عياش يحياوي بحجم 3X3، أصغر الصور الواردة على غلافيّ العمل، مرة أخرى يتوارى، وهذه المرة خلف أسطر تبوح بأهم أعماله الثقافية، كما سمّاها دون ذكر لتاريخ الميلاد أو الشهادات المحصل عليها.

3- مقبوس من الصفحات الأولى للعمل وهو بخط أبرز من خط السيرة الثقافية يبدأ "أزعم أن هذا الكتاب الصغير هو الجزء الأول من ثلاثة أجزاء تحمل عنوان "لقبش" الإسم الذي كانت تناديني به أمي في الطفولة".

فعياش يسعى بعد نشره الجزء الصغير –ويقصد به طفولته وصغره- إلى تحقيق مشروع سيرة ذاتية متواصل، أعلن عنه مسبقا من خلال الصفحة الأولى للغلاف: سيرة ذاتية الجزء الأول.

إن اختيار عياش يحياوي لصورته وكنيته وصورة أمه لم يكن اعتباطيا فإذا عملنا على ربط هذه العتبات الخارجية ببعض نحصل على النتيجة الملخصة في الجدول:

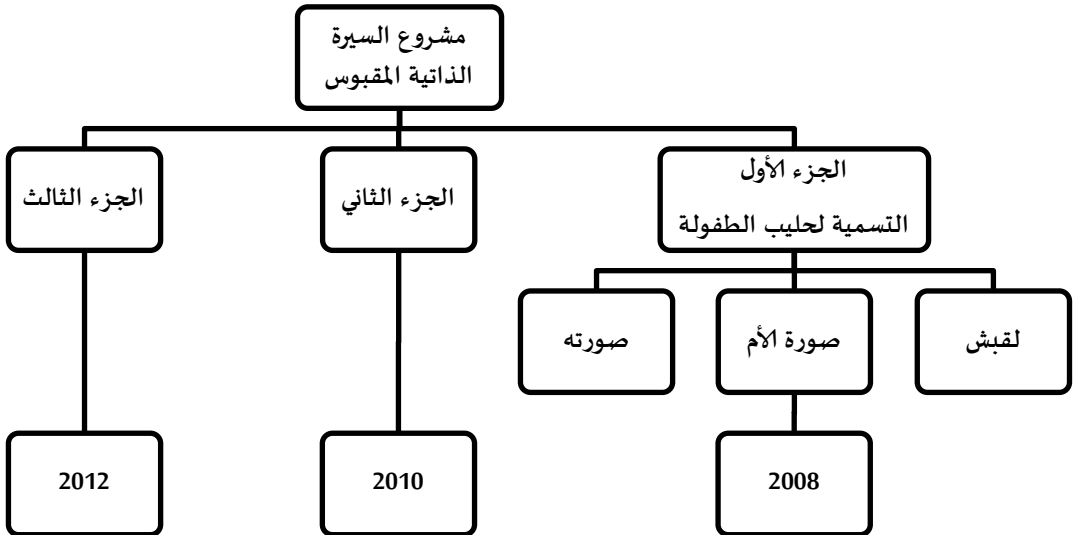

يحاول عياش الثبات على موقفه، ونصه مرتبط بجزء محدد من حاته: الطفولة، ويبدو متمسكا بهذا العالم، عالم الطفولة، بما حملته من معاناة قاسمته فيها أمه بحليبها الذي أرضعته، بجزء من تاريخ كتبته هي باسم لقبش.

2-العناوين الداخلية:

تعتبر العناوين الداخلية بمثابة الصوت الآخر للمؤلف، فهي دليل القارئ الموجه لعملية القراءة، فإذا تصفحنا عناوين لقبش الداخلية سنجدها بعد الإهداء تتكون من 25 عنوانا و7 صفحات تحتوي على ألبوم صور.

1- الإهداء:

تنفتح هذه العتبة على قيمة سيميائية وأخلاقية مهمة، فهي إشارة تنطلق على نحو قصدي ومباشر من المؤلف إلى القارئ الخاص والعام "وتكشف عن جزء فاعل من قصد المؤلف بمنظوره العام الذي تسعى القراءة إلى فحصه والاستئناس به في عملية القراءة"[8] وإننا نجد التأكيد على القصد لحكي الطفولة في عتبة إهداء لقبش:

إلى طفل متسخ اليدين والقدمين

يخاف لمس الخبز الأبيض

إلى الدنيا بنت الكلب

إلى الصمت الجبلي العالي

تتجلى هذه العتبة في شقين، الأول جزئي/خاص مرتبط بالطفل لقبش وبمرحلة ما، عانى فيها الخوف والجوع، والآخر: كلي/عام مرتبط بالدنيا وما تحمل في أيامها من أحزان وصعاب.

يحتل النص المصدر موقعا متميزا في طبقات المتن النصي الأصل "فهو يقع في فضاء وسطي بين العنوان والنص ولاسيما بعد الصفحة الأولى التي تلي صفحة العنوان الداخلية وغالبا بعد صفحة الإهداء[9] ففي الصفحة التي تلي الإهداء مباشرة والتي يمكن أن نعدها تصديرا ذاتيا، يشرع في سرد دوافع كتابته لسيرته الطفولية، هذه المرحلة التي نحتت شغاف قلبه الرخامي فيكتب: "في **حياتي** أحداث مركزية كان لها أثر كبير في انعراجي إلى عالم الكتابة الأدبية"[10] ثم يعددها:

ص7–الحدث الأول: انفصالي عن أهلي منذ كان عمري ست سنوات.

ص7–الحدث الثاني: رفض عمي شراء دراجة هوائية لي.

ص8–الحدث الثالث: الحصار الرمزي الذي عانيت منه حين نزل على جسدي الصغير قمر الشعر.

ص9–الحدث الرابع: يتميز بمشهد سينمائي، فقد استأجرت سيارة صغيرة في يوم عاصف بالرياح لنقل ما أملك ... إلى أول بيت لي بعد جدي ... وبعد خروج السيارة بحوالي 8 كيلومترات، فتح بابها الخلفي المملوء بأوراقي ودفاتري الشعرية ... وما هي إلا لحظات وغذا بفضاء المكان يتحول إلى بحر تسبح فيه أوراقي وقصائدي الأولى. وعلى الرغم من كونها خربشات أكثر منها قصائد فقد كانت عزيزة عليّ كثيرا.

ص10–الحدث الخامس: تضييعي لهدف حاسم في مباراة كرة اليد ... وكنت حينها من أحسن لاعبي كرة اليد في الشرق الجزائري ... أذكر أني ظللت أبكي ثلاثة أيام حتى وأنا على طاولة المدرسة لانهزامنا، بسبب تسديدتي الخاطئة.

يبقى عياش وفيا لمشروعه ويقدم عرضا لمعاناة لقبش ولصدع براءته:

1- الانفصال عن الأهل: ست سنوات ⟵ حرمان من حق الرعاية.

2- رفض شراء دراجة هوائية ⟵ نسف الحلم.

3- كتابة الشعر في سن مبكرة: جسدي الصغير ⟵ تحريم التعبير

حقوق طبيعية حرم منها: –حق الرعاية.

–حق الحلم.

–حق التعبير.

وتلحقها صدمات أخرى

1- تسبح فيه أوراقي وقصائدي الأولى.

2- تضييعي لهدف حاسم – أبكي ثلاثة أيام على طاولة المدرسة.

كلمات ترمز إلى معاكسة الزمن للأمل/ الهدف وتنهض صفحاتها على السرد الاسترجاعي متوسلة الذاكرة ويؤشر عليها عياش باستذكار آخر ص 11:" لا يفوتني هنا أن أشير إلى أن ما تضمنّه الجزء الأول نشر كله في جريدتي الشعب والمساء...

وأذكر أن الناقد الكبير محمد مصايف رحمه الله قال لي أمام باب الجامعة المركزية: إنك يا عياش تلتفت في كتاباتك هذه إلى جوانب أهملتها الرواية الجزائرية المشغولة بالايدلوجية الاشتراكية، ودعاني إلى مواصلة هذا النمط من الكتابة التسجيلية التي لا تدخل في خانة الرواية ولا في خانة القصة، ومن أبرز ما تتميز به أنها تؤرخ أدبيا لجانب من معاناة الطفولة بعد الاستقلال على الرغم من كونها تسجيلا لأحداث خاصة عاشها الكاتب".

يمكن عد هذا النص إذًا تضمينا صريحا للسيرة الذاتية فلا هو رواية ولا قصة وإنما تسجيل أو تأريخ لأحداث خاصة بالكاتب عياش يحياوي.

ويأبى عياش أن يبدأ سيرته دون أن يعرج على أهم فاعل في حياته هذا الفاعل الذي حمل عمله الكنية التي أطلقها عليه والتزم بها في الأجزاء الثلاثة لمشروعه واعتز بها: الأم، إنها أمه لم يستطع البدء في الكتابة دونها فهي التي صنعت بدأه، يقول في ص 13:" تجدر الإشارة إلى أن الجزء الأول هذا من شهاداتي هذه يتضمن حوارا مع والدتي، سأستهل به العلاقة مع القارئ الكريم لأنه يقدم في متنه جذوري جغرافيا واجتماعيا وبعد الحوار تبدأ حزمة الشهادات".

فيقدم أمه اسما ونسبا وتاريخا.

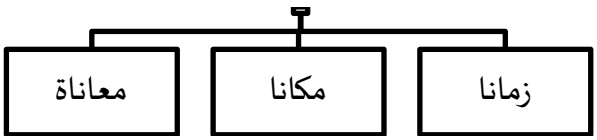

ويختار عنوانا: **حوار مع مباركة بنت سي نعمان والدة لقبش.**

اللافت للانتباه هو إصراره على الكنية منذ العلامات النصية الأولى وعلى حضور الأم *حليب الطفولة.

*العلاقة مع القارئ كريم والدة لقبش.

وكأنه يؤرخ لطفولته ما يحيل إلى التجنيس المدون على غلاف العمل: سيرة ذاتية.

2-العناوين الداخلية:

1- عتبات الفصول

مهما كانت الذاكرة قريبة من الصلاحية تبقى عملية الاسترجاع المطابق للذكرى متعذرة بنسب متفاوتة كما أن العملية قد يتخللها تقصد في عدم التطابق تجنبا التعرية كاملة ذاتية أو غيرية، لقد طرّز عياش عمله بـ 26 فصلا،

تراوحت عدد صفحات كل فصل بين 4 إلى 9 صفحات، عدا الفصل الذي قدم فيه الحوار مع أمه والذي وصل إلى 31 صفحة، والفصل الأخير الذي وسمه بخاتمة الصبي الذي هجر القرية بـ13 صفحة كما خص نهاية عمله بصفحات ضمّت صورا لأمه وأعمامه وجده وأخواله وأبناء عمه ويختم منجزه كما بدأه وذلك بوضع صورة معلقا عليها: "لقبش" هنا بدأت دقات الساعة.

إن خانته ذاكرة الحدث والزمن ودقّتُهما فلن تخونه الصورة، صورة الشخصيات وصورة المكان الموثق ومحامي التاريخ، فإذا عدنا إلى العناوين نرصفها:

- طفولة العائلة الصغيرة
- حنجرة الجبل الأسطوري
- لقبش والكلاب
- **الطفولة** الهاربة
- المدرسة **الأولى**
- مشاهد لا تموت
- **الصبي** وحروف المدرسة
- دار الطفولة لأبناء الشهداء
- رمضان وشقاوة الطفولة
- حديث الجمجمة
- المدينة للصبي
- الجنون يدق باب الصبي
- خاتمة الصبي الذي هجر القرية

ترتبط جل العناوين بالطفولة، طفولة لقبش وهي نوع من التذويت يكتسي لونا يكسب مشاركة عاطفية على مستوى المتلقى.

2-الهوامش:

يعد الهامش عتبة داخل/ خارج نصية، فيكون عتبة داخل نصية أسفل الصفحة أو في نهاية العمل، "فالهامش غالبا ما يزيل صعوبة ويعرّف صدعا أو هفوة في فكر المؤلف"[11].

والهامش لا يتوجه إلى قارئ محدد بل إلى قارئ أو متلق عادي بحاجة إلى دلالات توضيحية استغلقت عليه في المتن، ولم يخلُ عمل عياش يحياوي من الهوامش واستعان بها في وقفات مختلفة منها:

1. **شرح الألقاب والكنى:**

- دادا، تعني أبي وقد يطلقها الطفل على الأخ الكبير أو الجد أو الرجل الكبير من العائلة تقديرا واحتراما[12].

2. شرح بعض التسميات العامية الخاصة بالأماكن.

"الطرحة" مكان تطرح فيه أكوام السنابل بغرض درسها وتصفية حبوب القمح والشعير، وعادة يجتمع فيه القرويون للسمر[13].

3. تقديم مقابلات لكلمات عامية

"دزاير، هكذا ينطق اسم عاصمة الجزائر في الشرق على الأخص"[14].

4. إعطاء المدلول اللغوي لبعض المفردات الموجودة في اللهجة الجزائرية في أماكن دون غيرها.

"الكشكاش" هو الزبد الصادر من فم الجمل[15].

5. تحديد المناطق الجغرافية وتوضيح مواقعها.

"بريكة" مدينة بناها الاستعمار الفرنسي، تقع تقريبا في مدينة طبنة أول حاضرة عربية بعد الفتح الإسلامي في المغرب الأوسط[16].

هذه الهوامش لم تأت اعتباطا فهي تضيء بعض المناطق المعتمة في النص والمضيئة في حياة عياش أو لقبش، فهي جزء منه، تعد تاريخا وانتماءً فلا تخلو سيرة ذاتية من كلمات عامية، وسيرة لقبش لم تسجل كثيرا من هذه الكلمات والوارد منها حرص صاحبها على شرحها حتى يفهمها القارئ العربي لا الجزائري فقط.

الخاتـــــمة:

لقد حرص عياش يحياوي على أن يكون وفيا لميثاقه المعلن، وهو أن نصه ينتمي إلى السيرة الذاتية. فالسيرة الذاتية تقوم على محاولة الشخص استعادة حياته، فهي طريقة من طرائق مقومة ثانية وهي تواصل مع الآخر أحيانا ومواجهته أحيانا أخرى، وعياش عرض مقاومته للفترة البائسة لطفولته وقاوم سرديا الألم بالقلم وتواصل بفضل "الكتابة والنشر" وواجه من سبب له ألما.

لقد توفرت عناصر الذات والذاكرة والصورة في عمل يحياوي وأنتجت نصا نهض على خطاب الذاكرة عبر مراحل الطفولة والصبي، خطاب كتب حروفه من خلال العتبات النصية الداخلية والخارجية، عتبات نسجت علاقة بين عياش والقارئ علاقة البوح والشرك العاطفي.

الهوامش

[1] Philipe le jeune, le pact autobiophique, ed: seuil, Paris, 1975, P14

[2] فيليب لوجون، "السيرة الذاتية" الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة عمر حلي، المركز الثقافي، بيروت والدار البيضاء، ط1، 1991، ص 39.

[3] أنظر جورج ماي، السيرة الذاتية، ترجمة محمد القاضي وعبد الله صولة، بيت الحكمة، قرطاج، 1992، ص 203.

[4] شعيب خليفي، هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 2005، ص 12.

[5] خالد حسين، شؤون العلامات من التشفير إلى التأويل، دار التكوين، دمشق، ط1، 2008، ص 46.

[6] Jaques le carne, Eliane Tabone : l'autobiographie Arnaud colin, 1997, P226.

[7] محمد صابر عبيد، شعرية الحجب في خطاب الجسد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2007، ص 40.

[8] محمد صابر عبيد، شعرية الحجب في خطاب الجسد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2007، ص 40.

[9] محمد صابر عبيد، سوسن البياتي، المتخيل الروائي، سلطة المرجع وانفتاح الرؤيا، عالم الكتب الحديث، اربد–الأردن، ط1، 2005، ص 199.

[10] عياش يحياوي، "لقبش" سيرة ذاتية لحليب الطفولة الجزء الأول، ط1: 2008، ط2: 2012، مطبعة دار الفجر أبو ظبي، ص7.

[11] أخلاقيات القراءة، جي هيليس ميلر، تر: سهيل نجم، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 1997، ص 29.

[12] الرواية، ص20.

[13] الرواية، ص21.

[14] الرواية، ص139.

[15] الرواية، ص83.

[16] الرواية، ص83.